كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم النفس

دروس في مادة علم النفس النمو والفروق الفردية 2

د/حاجب سلسبيل

2- مبادئ نظرية بياجيه في النمو المعرفي ومفاهيمها

2-1- البيولوجيا والمعرفة أساس الخلفية العلمية لنظرية بياجيه

بعد أن توجه بياجيه من ميدان البيولوجيا إلى الفلسفة بهدف معرفة حقيقة التفكير المنطقي، وكيف ينظم الذهن المعلومات التي يستقبلها ضمن نسق عام يتضمن عدة تصنيفات حسب طبيعة المعارف، آملا بذلك تأسيس فلسفي جديد يندرج تحت إطار الابستيمولوجيا التكوينية؛ وجد نفسه أمام سؤال كبير هو "كيف يتكون التفكير المنطقي؟"

إن هذا التساؤل جعل بياجيه يتوجه إلى ميدان علم النفس بقصد ملامسة بُعد معين من الخارطة النفسية للإنسان، ومن ثم يدرس نمو المعرفة عند الطفل مع توضيح لكيفية تشكل البنيات المعرفية العقلية وتطور العمليات الذهنية. بهذا كان بياجيه رائدا في دراسة الذات المعرفية التي تبني العلم وتطور المعرفة لدى الإنسان بشكل عام، ولدى الطفل بشكل خاص.

تهدف أعمال بياجيه حول النظرية البنائية Constructivisme إلى دراسة بناء الفكر ونمو المعرفة بشكل متدرج، الأمر الذي جعله يلجأ إلى مقاربة بناء المعارف على امتداد النمو البيولوجي للإنسان، وذلك لأن ما يميز الحياة العضوية هو التطور والدينامية المستمرين من أجل بلوغ مستوى ثابت نسبيا يرتبط بنضج الأعضاء واكتمال النمو.

ينطبق هذا الوضع أيضا على الحياة العقلية التي تنمو في اتجاه يسير نحو تحقيق توازن قار وثابت يتمثل في عقل الراشد، الذي يتأثر بالبيئة من جهة وبالتركيب البيولوجي من جهة ثانية.

لقد كان طموح بياجيه في مساهمته البنائية، التي أصبحت كلاسيكية، مقاربة تطور المعرفة بمنهج جديد أساسه عدم وجود معرفة مسبقا، ولعل هذا ما دفع بياجيه إلى دراسة كيفية الانتقال من الأخطوطات الحسحركية إلى العمليات الذهنية، مؤكدا أن الحياة الذهنية تشبه في نموها النمو العضوي .

لقد كان هدف بياجيه من دراسته للبيولوجيا والمعرفة هو موضعة الوظائف المعرفية في إطار الحياة البيولوجية وإثبات علاقة التفاعل والاستمرار والتكامل بينهما. لقد حاول الانتقال مما هو بيولوجي إلى ما هو معرفي من خلال ربط الحياة العضوية بالآليات المعرفية، التي يجملها في الأعضاء المتخصصة لإنجاز عمليات الضبط الفيسيولوجية أثناء التفاعل مع العالم الخارجي. إنه يشير إلى تقارب بين الوظائف العضوية والوظائف المعرفية مع تبيان الفوارق بينهما وبالتالي إثبات خصوصية الوظائف التي تقوم بها المعرفة، والتي تتجلى في ضبط التبادل مع الوسط على الرغم من أنها تستلهم أدواتها من الضبط الحيوي المرتبط بنفاعلية الأعضاء في مظاهره العامة.

إن الفكرة الأساسية التي تركز عليها بنائية بياجيه هي النسق المعرفي المنظم ذاتيا Système auto organisé، يتجه بالضرورة نحو حالات التوازن بحكم اشتغاله وفق آليات استلهمها من ميدان البيولوجيا التطورية التي يتزعمها لامارك وأهمها الاستيعاب والتلاؤم، وبذلك يمكن الاستخلاص أن النظرية البنائية، التي تجسدها أعمال بياجيه، تمحورت حول دراسة بناء المعارف على امتداد النمو البيولوجي للإنسان، ففي كل مرحلة من النمو يمكن للمتعلم أن يكتسب معارف حسب حالة النضج البيولوجي التي بلغها؛ ومهم الإشارة هنا أن بياجيه على الرغم من تبنيه لمسألة التكيف النفسي فقد استبعد نظرية التكون القبلي للمعارف التي نادى بها التيار البيولوجي مع Gesell .A. كما أنه أكد أن وجود مراحل يتحقق فيها النمو دليل على أن بناء المعرفة حالة مستمرة عبر الانتقال من معرفة دنيا إلى أخرى أكثر اكتمالا وأكثر فاعلية لتكون بذلك سيرورة نشيطة للانتاج.

إن الاهتمام بوصف النشاط الذهني للذات المعرفية وتحليله أدى إلى إحداث تطورات نوعية صاغت أهم إنجازاتها في رؤية جديدة في مجال سيكولوجية الذكاء، الذي يتميز بكونه نشاط فعلي يظهر مع تكون الأخطوطات الذهنية الحسحركية ويستمر في التبلور ممثلا في ميكانيزمات العمليات الذهنية، التي من خلالها يتمكن الطفل من التفاعل مع العالم الخارجي. هكذا استطاع بياجيه الإجابة عن تساؤلات مركزية حول نمط التفكير عند الطفل وكيفية إدراكه لما حوله من موضوعات.

لقد أثار سلوك الطفل وفكره خلال معيشه اليومي اهتمام بياجيه، حيث أدرك أن فهم العالم ينتج من خلال تفاعل الذات مع الموضوعات الموجودة في المحيط الخارجي، وأن هذا الفهم يتغير نتيجة التطور الذي يلحق الذكاء والتفكير منذ الولادة إلى مرحلة الرشد، حيث يكون الطفل مسؤولا عن هذا البناء المعرفي لأنه ذات نشيطة وفاعلة في هذه العملية، تسعى إلى الموازنة من أجل فهم العالم بشكل أكثر دقة، ويعد هذا أساس التعلم.

2-2- النمو المعرفي عند بياجيه ((Jean Piaget

تعتبر نظرية بياجيه أهم نظريات النمو المعرفي بوجه عام وأكثر تأثيرًا، وقد بدأ منحاه الخاص في الاهتمام بنمو الأطفال أثناء دراسته في معمل الفريد بينه A.Binet، وهناك وضع أهم مفاتيح دراسة نمو الذكاء الإنساني، إذن ما هي طبيعة النمو عند بياجي؟ وما هي الخصائص التي أعتمدها لدراسة النمو؟ وما هي العوامل المتحكمة في النمو؟ وما هي المراحل التي ينبني بها النمو عند الطفل؟

إنّ طبيعة النمو التي تحدث عنها بياجي تتم وفق سيرورة متدرجة خطية ومنتظمة ومستمرة وفق مراحل متعاقبة، وبموجب قوانين كونية وشمولية، تبنى عبر مراحل ليست بينها قطيعة، فكل مرحلة تؤسس للمرحلة الموالية. ونظام المراحل الذي اعتمده بياجي هو نفسه بالنسبة لجميع أطفال العالم. ومن هنا فإنّ تعاقب المراحل يتم بشكل قار وثابت. وللتدقيق في مفهوم المرحلة اعتمد بياجي على خمس خصائص لدراستها هي كالآتي:

1/ الكونية: تشابه النمو لدى كل أفراد النوع البشري.

2/ الثبات: مرور الأطفال بنفس الفترات وبنفس النظام.

3/ قابلية التحول: عند ولوج الطفل مرحلة جديدة فإنّ تجاربه لا تعد منعزلة عن المرحلة السابقة، بل إنّ هناك مراعاة للمسائل التي سبق حلها.

4/ التطور المتدرج: ولوج المرحلة لا يتم بكيفية مباشرة إنما يتم تدريجيا.

5/ التوازن: عندما يجد الطفل ذاته أمام وضعية جديدة تثير له التوتر يلجأ للبحث عن التكيف من أجل استعادة التوازن.

وفقا لهذه الخصائص التي اعتمدها بياجي هناك أيضا عوامل تتحكم في النمو من بينها الوراثة التي تشمل النضج البيولوجي وتتضمن التجربة الفيزيقية الحسية أو الخبرات المرتبطة بالتجربة المنطقية الرياضية، إضافة إلى عامل النقل الاجتماعي الذي يتضمن الإرث الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية، ثم عامل التوازن الذي يشكل عملية متحركة وديناميكية تمكن من أن تعوض تلك الاضطرابات الواردة من الخارج فتؤدي إلى التكيف معها، وهذه العملية لا تتم دون استخدام آليتي الاستيعاب والتلاؤم.

تبعا لهذه العوامل التي أدرجها بياجي وأثبت أنها تتحكم في النمو المعرفي عند الطفل، فقد رسم هندسة عامة للنمو الذهني وفق مراحل متعاقبة حددها في أربع وهي كالآتي:

- المرحلة الحسحركية (الولادة- 2سنة)
- مرحلة ما قبل العمليات المشخصة (2-7 سنوات)
- مرحلة العمليات المشخصة (7- 11/12 سنة)
- مرحلة التفكير الفرضي الاستنباطي (11/12- 18 سنة)